أم.. هى الشيطان

زهيرة البيلى

دق جرس التليفون فى أحد مراكز البوليس بميلانو فى عام ١٩٥٦ فى حوالى الساعة الحادية عشرة مساء.. وكان الصوت لفتى يعترف بقتل أبيه!

كان صوتا محنوقا.. يبدو كأنه ينتفس بصعوبة وأنه فريسة لانفعال مخيف.. وأعطى الشاب الصغير عنوانه، فانطلقت على الفور، سيارة البوليس تشق ظلمات الليل، محدثة ضجة هائلة بصفاراتها المخيفة.

هناك بالدور الخامس وفى شقة كبيرة، وقف شاب - فى التاسعة عشرة من عمره - يرتدى قميصا بأكمام قصيرة وثيابه رثة، فضيرة طويل القامة، لكنه نحيف، عياه غائرتان، وجهه مضطرب، لكنه عذب وإلى جانبه وقفت امرأة «برجوازية» مربعة الوجه، عريضة الاكتاف ترتدى معطفا من الفراء وقد استقر عقد رفيع من اللؤلؤ على الديكولتيه الواسع.

كان من الواضح أن المرأة وصلت توا، أى منذ حوالى خمس دقائق فقط.. أما والدة العلام وزوجة الضحية فهى الكونتيسة «ديلافانو» وعلى مايبدو أنها كانت تتمتع فى شبابها بجمال نسبى، اخفى تماما وراء علامات السمنة الواضحة والتجاعيد التى تدل على الغلظة.. كما ظهرت من بعيد فتاة صغيرة فى الثالثة عشرة من عمرها، استعدت تماما لتصبح فتاة يانعة.. وقفت مرتدية بيجاما.

أما الضحية، فكانت هناك ممدة على الأرض فوق سجادة فى حجرة المكتب، والقتيل.. رجل فى الرابعة والخمسين من عمره، فى ثياب المساء التى بدت بلا رونق تحدد رمز للبؤس..

راح المأمور يكرر السؤال المعتاد فى مثل هذه الحالة: «انت الذى قتلته؟»، فلم يلق العلام على الإجابة، واكتفى بهز رأسه، علامة على الإيجاب وعندما سأل المأمور عن السلاح الذى استخدمه، أشار الشاب إلى بلطة صغيرة عليها آثار دماء وهنا حاولت الأم أن تخرج عن صمتها وتجيب بدلا عن ابنها.. الشىء الذى دفع المأمور إلى تهديدها بالطرد، فهو يريد استجواب الفتى، وأسئلته موجهة إليه فقط.

وبالرغم من صعوبة الموقف وشدة الانفعال، بدا صوت الشاب ضعيفا، ويعبر عن فترة مراهقة غير مستقرة «لقد تشاجرت مع والدى، الذى كان يعاملنى مثل «...»، ثم كان يسبنى، لقد ضربنى بالسوط.. وكنت ادافع عن نفسى».

لم تستطع الأم التحكم فى صمتها طويلا، فهتفت لمساعدة ابنها وأضافت: «كان زوجى يتعاطى الخمر.. فذهبت لزيارة الحيران.. ولم يكن يكف عن شرب الخمر كل مساء».

كان المأمور رجلا مسنا، أى ينتمى إلى جيل مضى: يتمتع بجسم صغير يرتدى معطفا واقيا من المطر، لا لون له، وينطقونه بحالة وكان يرتدى «بيريه» يغطى جزءا من إحدى عينيه.

فى هذه الليلة هطل المطر بشدة.. وظل المأمور يرقب الفتى متجاهلا الأم تماما.. وفجأة سأله:

لماذا كانت البلطة فى يديك؟ أجاب الفتى أنه كان يصنع عربة خشبية لشقيقته، عندما فاجأه الأب بالسوط، الذى استقر على السجادة وعلى بعد أمتار من الضحية.. ورفع الشاب قميصه بضيق، ليرى المأمور الخطوط الحمراء التى ملأت ظهره.

وهنا دق جرس التليفون فوق مكتب الكونت القتيل، وظل المأمور ينتزه بصره فى حجرة المكتب، وهو يحمل كل المعلومات اللازمة عن الضحية والتى نجح جهازه فى تجميعها فى فترة زمنية قصيرة.

كان الكونت «ديلافانو» الوريث الشرعى لعائلة عريقة من الريف.. الق القبض عليه أكثر من مرة لادمانه الخمر، كما ضبط فى حالات شغب، فقد كان سكيرا معروفا.

أما الكونتيسة فلم تكن سوى امرأة سيئة السمعة ضبطت خمس مرات متلبسة فى عمليات نصب واحتيال، كما سبق أن نشرت إعلانا فى الصحف تقول فيه: ان برازيلية ثرية تبلغ ثروتها حوالى ٤٠٠ مليون ترغب فى الزواج من شاب إيطالى، وكان يكفى أن ترسل إليها الـ ٣٠٠ فرنك مصاريف البريد، وكانت هى بالطبع هذه البرازيلية الثرية.. وتسبب هذه الخرافة فى الاساءة لمركز زوجها الذى كان يعمل - فى ذلك الوقت - مديرا بوزارة الإسكان.

القت الكونتيسة تعطفها على ملعد قريب، فظهر فستانها الضيق من الحرير الوردى وبعد أن ارتدى الشاب قميصه من جديد.. بقى الاثنان جامدين فى مكانهما امام المأمور، الذى بدأ يشعر باحساس غريب تجاههما فقد اعتاد المأمور التعامل مع هذه الأنواع من البشر، وعرف كيف يستقى الحقائق من وسط الظلمات، فعندما ينطلق فى بحث مأساة مثالثة فانه تتولد لديه أحاسيس تظل فى ذاكرته وداعما تزيدها التفاصيل المتعددة التى يأتى بها التحقيق فيما بعد..

لقد احس المأمور - ولأول وهلة أنه أمام مجرمين.

واستهل رجل البوليس - المأمور - فرصة وصول الطبيب الشرعى مع وصول جيش من المستولين ليفرد بالفتى داخل حجرته، واحد يفحص كل ماحوله، فوجد منشارا وبعض الأدوات على المائدة وإلى جوارها وجد هيكل عربة خشبية صغيرة.

كان واضحا أن الفتى يحب اخته، وليس من السهل على من فى مثل سنه أن يضيع وقتا طويلا فى صنع عربة خشبية لأخته، فكيف يمكن لشاب يحمل مثل تلك المشاعر أن يقتل أباه؟!

وعندما طلب المأمور من الشاب أن يحدثه عن ابيه، قال: «إنه ليس والدى.. ولكن ابى الحقيق هو عمى اما امى فهى الأبنة الحقيقية».

نعم.. هكذا قالت له أمه.

وامام هذه المفاجأة الجديدة جذب المأمور طرف «البيريه» ليغطى جزءا من عينيه، وجلس على حافة السرير واخذ الشاب إلى جانبه محاولا القيام بدور الأب العطوف، الذى كان يفتقده الأمن داعما!

كان الكونت «ديلافانو» مجرد اب رسمى للطفل، وكان يعامله بإهمال وجفاء غريب وكان يصرخ داعما فى وجهه قائلا: «إن امك ساقطة».. تعرفت عليها فى احد البيوت المشبوهة، واحيانا اخرى كان ينهال على الشاب بالضرب بوحشية، فيرغمه على الجلوس أو الركوع على ركبتيه لاذلاله، ويوثق يديه ثم ينهال عليه بالضرب حتى يسقط فى حالة إغماء.

كان الأب سكيرا غريبا، فعندما يشرب الخمر يتحول إلى وحش كاسر.

لقد نشأ هذا الشاب الحالم الرقيق وسط اسرة عفنة، فهذا الأب الشكل، الموظف الكبير، رجل القانون، الكاثوليكى النيل، وصل به الانحطاط إلى اتهام العلام «بالشذوذ».

وذلت التحريات أن صديقة العلام - وهى خياطة شابة - كانت تعانى من شدة غيرة الأم على ابنها الذى حاول الانتحار مرارا فى حالات يأسه فلم يتراجع الأب، وبإصرار شديد كان يسجن العلام لعدة ساعات طويلة داخل دولاب الحائط، وكان يتركه مرارا فى البلكون عاريا تحت المطر إنه تعذيب بطىء ومنسق.. تعذيب نفسى وبدنى، جعل الجريمة منطقية.

وبدأ المأمور بالتاريخ عدة نقاط أراد بها مواجهة الأم والابن مبتدئا بإعادة تمثيل الجريمة وبعد أن غادر الطبيب الشرعى، وجيش المستولين مسرح الجريمة.. عاد إلى المكتب هدوؤه حيث وضعت مكان جثة الكونت علامات بالطباشير وكذلك على السجادة.

وطلب المأمور من الشاب ان يعيد أمامه بالتفصيل تمثيل الجريمة كلها كما حدثت بالضبط حتى تم استدعاء البوليس كما أمره أن يأخذ البلطة من على المكتب وأن يخرج ويغلق الباب خلفه، أما الأم فطلب منها المأمور أن تبقى فى مكانها.

بعد أن اغلق الشاب باب المكتب، انتظر المأمور لحظات أوعدة دقائق، ليفتح الباب من جديد ويظهر الشاب البائس كأنه ابله يمسك البلطة بيديه..

كان جسده كله يرتعد، كما لو كان علاما بائسا فقيرا.

ظل الشاب يروح ويجىء داخل الحجرة لمدة ثلاث دقائق بلا معنى كأنه ممثل بلا موهبة يؤدى دورا صامتا، فبدت نظراته مترددة، وعندما انتهى نحه إلى التليفون فعلق به وكأنه أداة إنقاذ، وهنا تحول المأمور عن أسلوبه

الأبوى ويحول إلى إنسان آخر عنيف.

أحس – وللحظة – أن الفتى يسخر منه .. فمن المستحيل أن تكون الأحداث قد تتابعت بهذه الطريقة واستنتج أولا أن الفتى لم يضرب اباه كما أوضح، وإلا ما استطاع اصابته فى رأسه. كما أنه من الواضح أيضا أن الغلام لم يعطه ظهره على الإطلاق.

والسؤال : إذن فلم ابن أنت ضربات السوط ؟!

تبادلت الأم وابنها النظرات. وبدا الشاب كما لو كان يريد الاعتذار لها. أما هى فكانت فى قمة حالاتها العصبية.

وعندئذ قرر المأمور أن يضرب ضربته، حتى ولو كانت فى الأمر مغامرة.. فهدد باستخدام العنف، فالموقف لم يعد يحتمل.. إنها جريمة، أى جناية، فقد مضى والنهى وقت الأكاذيب، وجاءت ضربته فى شكل سؤال مفاجىء وجهه للفتى :

« هل كانت لك علاقة جنسية بأمك ؟ ».

جاء السؤال مثل الصاعقة التى هبطت على حجرة المكتب الحزين بالدور الخامس. فبدت الأم فى ثيابها العارية شاحبة الوجه وقد تطاير الشرر من عينيها. ومع ظلمة الليل كان كل شىء صامتا، إلا من صوت الترام، أول ترام يمر فى الساعات الأولى من الفجر.

لقد اطلق السؤال الصاعق.. الذى فجره المأمور العملاق بركانا حين صرخت الأم قائلة : « إنه شىء مخجل ! » وحاولت منع ابنها من الإجابة.

اما الابن.. فقد شحب وجهه وتقوس ظهره وغارت عيناه، ولم يستمر طويلا فى صمته فقال بصوت خافت :

نعم.. حدث هذا مرة واحدة. وأرادت التكرار ولكنى رفضت لقد احسست بالخجل من نفسى، وكنت فى السادسة عشرة من عمرى.

أمام هذا الأعتراف المخجل صرخت الأم مكذبة متهمة اياه بمحاولة استدراج أخته الصغرى عندما كانت فى العاشرة.

الاتهام شنيع فاق قبحه الوصف والحدود فراح الابن يدافع عن نفسه وكيف إنه يحب ويخاف على أخته الصغرى. وأجهش بالبكاء وكان بكاء مريرا نعم كان الموقف يبعث على البكاء.. أطفال يعيشون فى وسط اجتماعى متعفن بين أم ساقطة لاقيم لها وأب مخمور دائما لقد عرف المأمور من وسط هذا الواقع الأليم الاجابة على أسئلته ولكنه احتفظ بهذه الإجابات لنفسه.

وأمام القضاء اعترف الشاب.. ولكنه اكتشف ظروفا مخففة كثيرة منها :

نشأته فى وسط اجتماعى فاسد وحداثة سنه.. الشىء الذى خفف عنه الحكم إلى ثمانى سنوات فقط أما الكونتيسة فخرجت مثل الشعرة من العجين حرة كما كانت، بل ربما أحسن مما كانت تقود ابنها التى وزلت جزءا من الميراث – عبر حياة شائكة أما المأمور صاحب البيريه فلم يتلق حتى الدعوة لحضور هذه القضية التى لم يكن يتوقع أنه سوف يستأنفها من جديد عندما قضى زميل للشاب مدة عقوبته وخرج ليلتقى بالمأمور..

تأسف زميل الزنزانة كثيرا على حالة الفتى البائس. وشرح للمأمور أنه يريد مساعدته خاصة بعد أن اعترف له بكل شىء : قبل ارتكابه الجريمة كان يعمل فى مزرعة عندما استدعته أمه إلى « ميلانو » لحت حجة أنها وجدت له عملا أفضل. وكانت بالطبع خدعة. ولما كان الغلام واقعا تحت سيطرة تلك الأم كان من السهل عليها دفعه لقتل أبيه، بعد أن قامت بترتيب كل شىء فقد خرجت بحجة زيارة جيرانها فى الشقة المقابلة. وعندما انتهى الشاب من جريمته أضاء حجرة الطعام. وكانت تلك هى الإشارة المتفق عليها فجاءت مثل الوردة المتفتحة وقامت بضرب أبيها على ظهره بالسوط حتى يبدو كأنه كان فى حالة دفاع شرعى عن النفس. وأثناء المحاكمة كانت تبعث إليه بخطاباتها المستمرة تناديه باستمرار : « ابنى حبيبى.. معبودى الصغير ». وتكرر وتعيد عليه باستمرار ما يجب أن يقوله وتقسم له أن المحامين متفائلون وأنه سوف يتم الإفراج عنه قريبا بالرغم من كل شىء وعندما صدر الحكم ضده بالسجن لم يتلق منها كلمة واحدة. ولاحتى برقالة فى أيام الأعياد. أما الأم الحسناء العجوز فتبخرت فى « لاس فيجاس »... بقايا امرأة تقود ابنها إلى الانهيار، وتوسل الرجل زميل الزنزانة لدى المأمور ليتقذ هذا الشاب وليعاقب المجرم الحقيقى.

وأمام هذه التصريحات الجديدة لم تكن دهشة المأمور كبيرة. فماذا يمكنه أن يفعل خاصة أن الذى أتى بهذه المعلومات الجديدة صاحب سوابق ؟ ثم أن الشاب معترف بجريمته قبل وبعد كل شىء. ومن المستحيل أن تنظر القضية من جديد. أما الأخت المسكينة.. فما

تصميم محمد ابراهيم

قريب سوف تبلغ السادسة عشرة. وكيف يسمح القانون ببقائها مع تلك الأم الساقطة. أية أحياة تلك التى تنتظرها ؟! لقد أقسم الشاب على الثأر لنفسه ولأخته.

استطاع المأمور بعد عدة أيام مقابلة الفتى كانت حالته حقا تدعو للرثاء فقد بدا هزيلا ضعيفا تحت ملابس السجن لقد توقع الشاب نفس المصير لأخته فأراد إنقاذها وساعده المأمور ليتقدم بشكوى لرئيس المحكمة. وقاضى التحقيقات يتهم فيها أمه بمحاولة قتل أبيه خنقا بالغاز قبل وقوع الجريمة بعام كامل. الجد محرر من مكتب الترتيول « لاس فيجاس » للتحرى واستجواب الكونتيسة وكعادتها كانت تختال فى فستان أصفر اللون ممدة على أريكة على حافة حمام السباحة بفندق « هيلتون » وعندما أثار المحرر أخطر جزء فى الاتهام أخذت تصرخ : « هذا كذب.. كيف أحاول خنق زوجى.. فلم تكن غرفته مزودة بالغاز. »

وأمام هذه الحجة الجديدة بقى محقوق الاترتيول فى حالة ذهول وقد أصيب بخيبة أمل. وعلى بعد ٩٠٠٠ كيلو متر اتصل بالمأمور ليبلغه بمعلوماته الفاشلة. واعتقد المأمور – للحظة أن الفتى قد قام باختلاق هذه الرواية الجديدة. وطلب المأمور من زميل الاترتيول البقاء بالقرب من الكونتيسة حتى تظل تحت المراقبة.

وفى هذه الأثناء اتجه إلى السجن حيث الشاب قابع فى زنزانته. بعد نصف ساعة اتصل المأمور من ميلانو بلاس فيجاس.. وبعد أن رسم له الفتى بكل دقة خريطة تركيب الغاز فى حجرة أبيه.

لقد كذبت الكونتيسة.. كانت حجرة زوجها مزودة بالغاز وحتى عام قبل مقتله.. وقام الكونت برفعه وبناء على طلبه بعد أن اكتشف حيلة زوجته أى بعد أن كاد يموت خنقا. وكان عامل الرصاص الذى قام بتركيبه وتزعه دليلا آخر على كذب الزوجة فقد قال الكونت فى ذلك الوقت : « بهذه الطريقة لن تهلو نفس الكونتيسة لقتل مرة أخرى » وبناء على هذه المعلومات حجزت المرأة فى زنزانة فاخرة « بلاس فيجاس » حتى تم نقلها لميلانو.

وأخيرا ألقى القبض على الكونتيسة « ديلا فانو » ثم صدر ضدها حكم يقضى بأقصى العقوبة لتواطئها فى قتل زوجها ولكن الأهم من هذا كله هو أنهم استطاعوا انتزاع الفتاة المسكينة من مخالب الأم الساقطة فى الوقت المناسب. ■